

الجمال المصنوع... ليس من الأدب!

بقلم: ر. هـ. البيرسيخ

وذلك هو في الحقي خطأ العهد المسمى بالعهد الاكاديمي الذي كان يطبق قوالب لا نفع فيها على آثار مكتملة لا حاجة لها بها . تلك هي بديعيات اسلوب الخطب والنعوت الانشائية والمرادفات الزائدة . ان السعي الى الجمال والتجميل يقود الى التوافه والمبتذلات . وقد وقعت في هذا الخطر كثير من العهود السابقة، بواسطة « الكلمة النبيلة » التي كان يسعى اليها كبار كتابنا السابقين و « الخطاب البديعي » الذي اعتاده اللاتين .

وقد حدث ان أثرتُ استغراب بعض الناس حين قلت لهم ان الجمال لا يوجد في الفن ، ولا في الفن الادبي ، وانه لا يوجد الا الاسلوب الناجح . تلك هي القضية القديمة المتخلفة من العصور . هل هناك قانون للجمال ؟ انني معجب دون ريب بالقوانين اليونانية في عصر النهضة ، ولكننا نعلم انها قد فقدت تفوقها ، وليس هناك من يفكر بعد في ان يكون فنا خلاصة روح النهضة . وهذا خطأ قد كلف شهرة النصف الثاني من القرن التاسع عشر ثمناً باهظاً .

*

منذ ان قام رد فعل القرن العشرين الذي اصبح فيه الفن حاجة اولية ، وكف الأدب عن ان يكون موضوع تشلية او سحر ليشكل من جديد ضرورة ، وليتحمل قلق العصر ومصيره ، انقطع الحديث عن الجمال . فلا مالرو ولا بيكاسو ولا رولت ولا كامو يهتمون بالجمال ، ذلك انهم لا يعتبرون فهم وتفكيرهم زينة تستهدف التبريز والتصدير ، كالكواكب في مباريات الجمال . وهذا يدل على ان الادب والفن اذ يؤديان دورهما الكامل لا يهدفان الى الجمال ، وانما هما يهدفان اليه اذ يُقدَّان الى هامش الحياة ، الى مضمار عقيم ، باسم « الجمالية » او « البديعية » او « الفن للفن » .

على ان ذلك لا ينفي اطلاقاً ان تكون الآثار التي لم تُصنع باسم « الفن الصافي » جميلة ، انها ليست الجمال ، لان ما هو الجمال هو النسخة النظرية لشيء له معنى ، وله خصوصاً « معناه » . ان

يأخذ بعض الناس على الأدب المعاصر انه « لا يبالي بالجمال » فيدور إذ ذاك في الاذهان ان هذا الجمال « سيدة » صورها أكاديميو او اخر القرن الماضي تصويراً واسعاً ، في حين نسي شعراء اليوم أن يغأزلوها . والحق ان الناس لا يهتمون الا ما هو موجود . والجمال ليس موجوداً في شكل نموذج او وصفة او قانون . انه يُخلق وينبغي ان يُخلق دائماً من جديد ودون ما انقطع . واذا لم يكن في آدابنا جمال ، فليس ذلك لأن معاصرنا يرفضون ان يضعوا فيها الجمال ، كما يرفض طباطخ ان يضع في مرقه بهاراً ، وانما لان ما يكتبون لا يبلغ ان ينصب في شكل ، ان يتخذ شكلاً واضحاً ونهائياً . ذلك ان الجمال ليس اسلوباً خاصاً بحيث انه لو أهمل ، لا يكون الأثر جميلاً ، وانما الجمال هو نجاح اسلوب ، اي اسلوب .

والمصيبة ان الاساليب تتغير مع العهود ، وان الاساليب الناجحة السابقة لا تشكل الاجمالات سابقة . فوضع جمال معين ومعتوف به في آثارنا الحالية يعني اجمالاً اعطاءها اسلوباً ليس هو اسلوبنا ، بالرغم من انه الآن اجمل من اسلوبنا ، ويعني آخر الامر الوقوع في التقليد . ولا ريب ان هناك ألواناً ناجحة من التقليد . وهذا ما نراه مثلاً في « حفلة الكونت دورجيل الراقصة » لراديفيه او في « مذكرات هادريان » لمدام بورسونا . ولا ريب في اننا إذا كنا لا نعيد الكتابة ، بينما كانت مدام دولافايت تجيدها ، فان لذلك التقليد اهميته ، بل فائدته . ولكن اذا كان تصنع الاساليب القديمة قد أدى خدمات جليلة في عهود تجديد الاساليب ، فهو لم يُقدم ابداً حلها المطلوب .

والخطر الكبير في ألا يجد الناس قدراً كافياً من الجمال في الادب المعاصر هو ان يخرجوا من ذلك آلياً الى تعريف الجمال المثالي وفقاً لنماذج الماضي ، والى الاعتقاد بان بالامكان وضع الجمال ، في ما يكتبه الادباء فهذا يعني اضافة زينات تقليدية .

مسابقة « الآداب » للقصة

كانت « الآداب » قد أعلنت في اعداد سابقة عن اقامة مسابقة للقصة بحق لجميع ادباء البلاد العربية ان يشتركوا فيها، وقد كان مقرراً ان ينتهي اجل قبول القصص في اول هذا الشهر آب (اغسطس) من العام الحالي .

ولكن ظهر لهيئة التحرير ان عدد القصص التي وردت المجلة حتى الآن اقل بكثير مما كان منتظراً ، ولذلك رأت « الآداب » ان تمدد اجل المسابقة حتى آخر تشرين الاول من العام الحالي ، على ان تنشر القصص الفائزة في العدد الثالث عشر وهو العدد الضخم الذي ستصدره « الآداب » خاصاً بالقصة في مطلع العام القادم (كانون الثاني ١٩٥٤) .

وعلى ذلك تمدد « الآداب » اجل مسابقة القصة حتى آخر تشرين الاول القادم بالشروط نفسها وهي :

- ١ - ان تكون القصة موضوعة غير مترجمة ولا مقتبسة ولا منشورة .
- ٢ - ان تعالج موضوعاً يهم الجماعات العربية او الفرد العربي .
- ٣ - ان تكتب كلها باللغة العربية الفصحى .
- ٤ - ألا تتجاوز ثمانين صفحات من « الآداب » .

أما الجوائز فتلات :

الاولى : ٣٠٠ ليرة لبنانية او ما يعادلها

الثانية : ١٥٠ = = =

الثالثة : ٥٠ = = =

وستتألف لجنة محكمة تعلن اسماء اعضائها فيما بعد .

الجمال بناء صناعي ، والآثار الجميلة هي التي اكتسبت معناها اكتساباً كلياً ، ايأ ما كان هذا المعنى . فحتى « اتينا » فيدياس كانت « اتينا » ولم تكن الجمال ، وكذلك « فينوس » ميلو ، كانت فينوس هي نفسها ، لا الجمال . و « ملاك » ريمس هو ملاك ، و « تفاح » ماتيس هو تفاح ، وليس الجمال .

انني اقر ان الجمال هو القاسم المشترك لهذه الآثار الأخيرة؛ ولكن الجمال هنا هو نجاح فينوس ونجاح الملائكة ، ونجاح التفاح . ولست ارى بين هذه الوقائع الثلاث شيئاً مشتركاً الا عنصر النجاح ، اذ تكون فينوس هي فينوس ، والملاك ملاكاً ، والتفاح تفاحاً ، كل في معناه على اقصى امتداده .

وإذن ، فاننا لن نجد الجمال في الادب اذا اردنا ان نضعه فيه . فما دام غير موجود ، فمن اين يؤخذ ؟ وانما سنجده كلما نجح الكاتب لا في بلوغ غايته فحسب ، وانما في التعبير عن غايات معاصريه وقضاياهم . إذ ذاك لن يبدو اسلوبه غير دقيق ، ولا غير معتنى به ، وانما ستنقاد عبارته للحقيقة وملكية جملة للواقع . ومهما كان اشخاصه متبرمين بالحياة واشقياء ، فسيكونون « جميلين » اذا كانوا من هم حقاً ، اي نحن انفسنا في ذلك الامتداد الذي لن ندركه ، من السعادة والشقاء والطيبة والاجرام . فمن العبث إذن حث كتابنا على ان يجملوا لوحاتهم التي يرسمونها عن عصرنا . فانهم يمثل هذا القصد مشوّهاً هوها دون شك . فعقدة رقبة جميلة لن تجعل قاتلاً ما اجمل بما هو في حقيقته ولا القسم الكاذب بلغة جميلة . ولن يكون عصرنا اجمل اذا كان ابطال الرواية ذوي نوايا طيبة ، ولا اذا صورت الكتب بسمة الاطفال الجذابة وانما سيكون أجل اذا اكتسب القاتل والقسم الكاذب والشاب النقي والبطله المؤثرة امتدادهم الحياتي كله .

لئن لم يكن الجمال قائماً على عناصر مصنوعة مسبقاً ، ولئن لم يكن الا النتيجة الطبيعية لأزمة ذقة وتجويد يمارسها الكاتب على اي عنصر من العناصر ، فان القيمة الجمالية هي دائماً إزهار غير منتظر ، ولا شيء يسمح في عصرنا بان نبأس من مثل هذا الازهار بل ان انتفاء اي تعلق مصطنع او اكايمي بهذه القيمة او تلك يترك اوسع المجال لهذه التلقائية التي تقدر وحدها ان تطلب الكمال والتجويد الحقيقيين . صحيح ان « ازمة الجمال » لم تأت بعد ، ولكن عدم الاكتراث واللامبالاة اللذين يظهران اليوم هما في صالح انبثاق هذه الازمة ، خلافاً للرأي السائد .